الموضوع الروائى

ترتبط روايات الواقعية الإسلامية لدى " نجيب الكيلانى " بالفترة الراهنة أو القريبة منها ، ويستشعر القارىء أنها معنية بالحوادث الجارية والقضايا المعاصرة بقصد معالجتها والدوران حولها ، وهو ما يوهم أنها قصص إصلاحية أو قصص للتسلية ،ولكن الواقع القصصى يعطى القارىء صورة أخرى أكثر عمقاً وأوسع شمولاً ، لأنها تتناول الإنسان أو المواطن الذى تضنيه أزمة الحرية ، ويقهره فقدان العدل ، ويعذبه توحش االفساد .

إن القصص الإصلاحية – كما يقول بعض الباحثين – تكون عادة قصيرة الأجل ،لا يكتب لها البقاء ، لأنه لابد من أن يأتى يوم تعالج فيه النقائص ، وتدرج فى سجل النسيان وكثيراً ما يوفق الكاتب فى هزة الحماسة التى تمتلكه ، إلى تصوير بعض الحوادث تصويراً حيّاً متحركاً ، وإلى تلوين البيئة بألوان صادقة معبرة ، وهو بهذا يمهد لقصته سبيل الخلود ، فتطوى فكرته الإصلاحية مع الزمن ، وتبقى هذه الألوان الفنية الصادقة (١) .

ولا يستطيع القارىء أن ينفى عن روايات " نجيب الكيلانى " الصفة الإصلاحية تماماً ، فهى صفة متضمنة إلى حدٍ ما فى بعضها ، ولكنها فى الوقت ذاته تحمل عناصر الخلود الفنى ، لأنها دارت حول موضوعات شبه أزلية فى واقعنا العربى الإسلامى (الحرية ، االعدل ، الاستقامة ، النهضة ..) ، من ناحية ، وتضمنت حوادث وشخصيات فى صياغة فنية حيّة ذات مستوى عال من الحرفة والأداء من ناحية أخرى .

قد يتوهم القارىء أن القصة التى يرويها نجيب الكيلانى مجرد حادثة ينسج حولها بعض الأبعاد التى توحى بآنية الحادثة ، وتبشر بتلاشيها أو تلاشى تأثيرها بعد

١ - محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ٢٦-٢٧.

قراءتها ، ولكن الدخول إلى أعماق القصة ، يكشف العكس ، ويبشر بعالم قصصى ملىء بالحياة والحركة ..

إن رواية "اعترافات عبد المتجلى " مثلاً تبدأ بداية مشوقة مثيرة ، من خلال حادثة طريفة غريبة ، تتعلق بسرقة ونش ضخم ، كان يستخدم فى مشروع إنشاء مترو الأنفاق بالقاهرة وأن هناك أجهزة مسؤولة يُفْتَرَض أنها تتولى معالجة الموضوع ، إلا أن الشاب عبد المتجلى يأخذ على عاتقه عملية البحث عن الونش للعثور عليه ..

" هذه كارثة كبرى بكل المقاييس ، الحادثة التى أعلن عنها حقيقة ..نعم حقيقة تفقأ عين الشمس ، والناس يضحكون ، شر البلية ما يضحك ".

ويأخذ البطل فى المقارنة بين سرقة الونش الضخم من ميدان عام شهير بمدينة القاهرة ، لا تنقطع فيه حركة السير ولا الأجهزة الأمنية ، وسرقة الأشياء الأخرى من الجيوب والدور ، وسرقة الأضواء والشهرة والسلطة والانتخابات .. وهذا النوع من السرقة لا يثير الغرابة .. أما سرقة الونش فهى المثيرة والغريبة ، وقد جعلت " عبد المتجلى القصاص " يقلب حياته رأساً على عقب ويحاول البحث عن الونش وعمن سرقوه :

" كيف يسرقون الونش ؟؟ إن ذلك غاية الوقاحة والفجر والاستهتار " (١).

إن الحادثة بهذا الشكل تبدو إلى حد ما موضوعاً آنياً ينتهى بصورة وأخرى عند العثور على الونش ، أو عدم العثور عليه ، ولكن الرواية من عنوانها ، حتى خاتمتها ، بل خاتمة الرواية الثانية – المكملة لها – وهى "امرأة عبد المتجلى " ، تعطينا العديد من الدلالات والمعانى العميقة والمطردة ، التى تتصل بالإنسان الباحث عن الحياة الحرة

١ - اعترافات عبد المتجلى ،٥.

االعادلة المستقيمة ، وسط طوفان من القهر والظلم والانحراف تصنعه النفوس الخبيثة والقلوب المتحجرة والطبيعة البشرية الملوثة .

والسؤال الذى يجبهنا منذ البداية : هل نجد فى اسم " عبد المتجلى " دلالة توحى بالعبودية لمن يتجلّى أو يظهر على البشر ، ويرى أعمال العباد بخيرها وشرها ، مما يعنى أنه وحده الأحق بالعبودية دون غيره ممن تألهوا ، وتجاوزوا حدود " الإنسانية " إلى تخوم "الألوهية "؟.

وهل يمكن إذاً أن نرى فى الاسم المركب " عبد المتجلى " ودلالة العبودية لمن يملك مصائر العباد ، ضرورة التحرر من الرق البشرى وجبروت العباد " المتألّهين "وقيودهم ، وهو ما حاول بطل الرواية أن يكونه على امتداد رحلته الواقعية والفنية ؟.

أم إن اسم " عبد المتجلى " لا يعدو أن يكون مجرد اسم ، اختاره الكاتب ليمثل نوعاً من الأسماء النادرة أو المتفردة التى لا يتسمّى بها الناس إلا فى حالات قليلة ؟.

أياً كان الأمر ، فإن " عبد المتجلى " الاسم والبطل ، يقودنا إلى تجربة مثيرة فى مواجهة الواقع ، والكشف عن صراع النفس البشرية بين الخير والشر ، ومدى قدرة الإنسان ذى الفطرة السوية على تحمل المحن والصبر عليها حرصاً على حريته وكرامته الإنسانية .

ويلاحظ أن كلمة " اعترَفات " فى عنوان الرواية – اعترَفات عبد المتجلى – لا تعنى الدلالة الحرفية للاعترَفات ، فالبطل لا يعترف بشىء ، ولا يتحدث عما جرى له ولكن الكاتب أو الراوى يتولى بالنيابة عنه حكاية قصته منذ خرج من قريته يبحث عن الونش المسروق حتى عودته مع امرأته التى تزوجها فى القاهرة .. ثم امتدت الحكاية حتى مقتل هذه المرأة فى نهاية الرواية الثانية المكملة – امرأة عبد المتجلى – ولعل الكاتب كان يقصد ما أدلى به عبد المتجلى من أقوال ، أوما طُلب منه الإدلاء به أمام أجهزة الأمن عندما

قبضت عليه ، ولكن هذه الأقوال لا تمثل اعترافات ذات هيمنة على الموضوع الروائى حتى تصير عنواناً للرواية .

وفى كل الأحوال ، فإن العنوان كما ورد على غلاف الرواية قد لا يعبر تماماً عن مضمونها ، ولعله لو اقتصر على اسم البطل وحده (عبد المتجلى) ، لكان انطباعاً على مضمونها وفحواه ، وأكثر اتساقاً مع الدلالات الواقعية والفنية للرواية .

وبالمثل يمكن القول ، إن عنوان الرواية الثانية " امرأة عبد المتجلى " قد يعبر عنه اسم البطل وحده (عبد المتجلى) فهو لم يزل محور الموضوع الروائى وعمدته ، وإن كان لامرأته نصيب كبير فيه ويعزز هذا ما قاله لى المؤلف ذات مرة :" إن هناك جزءاً ثالثاً سيكون بعنوان " هجرة عبد المتجلى " الذى كان ينبغى أن يكون اسماً للرواية بأجزائها الثلاثة ، وكان يمكن أن يطلق على الرواية الأولى ، الجزء الأول ، والثانية الجزء الثانى ، والثالثة التى سيكتبها المؤلف : الجزء الثالث .

وأياً كان الأمر ، فإن دلالة العنوان فى الرواية الثالثة موضوع الدراسة ،أعنى "قضية أبو الفتوح الشرقاوى " تنسجم مع دلالاتها ، وكذلك الرواية الرابعة " ملكة العنب ".

بيد أن روايات الكيلانى هذه ، تشدنا فى مستوى من مستوياتها الأساسية إلى قضايا طارئة على المجتمع ، وغريبة عليه ، أو لم يكن له بها عهد من قبل ..فعبد المتجلى يطلعنا على قضية خطيرة صنعها الفساد المتوحش ، وهى تجريف الأرض الزراعية لصناعة الطوب من ترابها ، مما يعنى تخريب الزراعة وتخريب الحياة ذاتها ، ويطلعنا على قضايا أخرى خطيرة منها انقلاب القرية المصرية شكلاً ومضموناً ، والتطرف الدينى والرشوة وفساد الإدارة والظلم الاجتماعى والسياسى ...وأبو الفتوح الشرقاوى يطرح قضية الكذب وإدمانه حتى صار شارة العصر وعلامته على أكثر من مستوى ، بالإضافة إلى الفساد

والانتهازية والمحسوبية وعفن الطبقات العليا والغلاء ،والفقر وتجار السوق السوداء وانتشار الأمراض المتوطنة ، وتثير رواية " ملكة العنب " قضية ترك زراعة المحاصيل المعتادة من قمح وشعير وذرة وأرز، وزراعة العنب بدلاً منها مما يعنى أن يجوع الشعب ويمد يده للغرباء كى يستورد لقمته ، وإن حقق زراع العنب مكاسب طائلة .

تعبر هذه القضايا فى مستواها هذا ، عن وعى الكاتب بما يجرى فى مجتمعه ، وشوقه إلى أن يبرأ من آثارها الضارة ، ومضاعفاتها المزعجة ، وهو حين يقص حوادثها ، فليس غرضه- كما يقول "موباسان " أن يسلينا أو يثير شعورنا ، بل هدفه أن يجبرنا على أن نفكر ونفهم المغزى العميق الخفى للحوادث ، وفنّه لا يتجلى فى المؤثرات العاطفية أو فى مجال اللغة أو البداية المشوقة .أو الصراع المؤثر بل تكمن قدرته فى حشد التفاصيل الدقيقة المتكررة التى ستعمل على إبراز المغزى الجوهرى " وقوله (ستعمل) يعنى أن مغزى القصة لن يتضح إلا بعد الانتهاء من قراءتها بحرص وأناة . حتى نستطيع نحن أن نساعد الأديب على استكمال الصورة المراد إيصالها إلينا"(١) .

وفعلاً ، فإن القارىء لا يستطيع أن يصل إلى المغزى العام إلابعد القراءة الحريصة المتأنية ، وأمام الحشد – بل الحشود الضخمة – من التفاصيل الدقيقة ، لابد للقارىء أن يستنتج قضايا رئيسية مهمة وأساسية فى الصراع الإنسانى بين الخير والشر، من خلال التقاط المادة اللافته وغير العادية ، التى تعد المفتاح الحقيقى للقراءة كما يرى " روجر هينكلى " (٢) .

---

١ - طه محمود ، القصة فى الأدب الانجليزى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م ص ١٤١.

٢ - روجر ، ب هينكلى ، وصلاح رزق ، فى قراءة الرواية : تصور منهجى ودراسات تطبيقية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٨٨ص٣٧.

وتبدو حرية الفكر من أبرز هذه القضايا ، فهى عنوان "الحرية الإنسانية "والطريق إلى التقدم الشامل : روحياً ومادياً وقد تردد الحديث عنها فى ثنايا الروايات وبخاصة روايتى عبد المتجلى (اعترافات عبد المتجلى ، امرأة عبد المتجلى) ، وترتبط حرّية الفكر بأبعاد متعددة تعنى حرية الإنسان وصراعه مع قوى القهر والظلام التى تؤمن بالقمع وسيلة لإخضاع الناس وتسييرهم ، مهما كانت نتائج هذا القمع متناقضة مع الفطرةالإنسانية والقوانين والقيم والأعراف ، فضلاً عن الأديان السماوية .

ويبرز السياق الروائى مدى خطورة الرأى أو حرية الفكر فى مجتمع القمع ، لدرجة أن قضايا المخدرات تبدو أقل خطراً من قضايا الرأى ، فالمتهم فى الأولى يجد فرصة الإفلات من العقاب والتمتع بالبراءة ،أما قضايا الرأى فصاحبها متهم دائماً ، وتلاحقه التهمة أينما توجه ، وهو على قائمة المطلوبين باستمرار وهاهو الحاج إسماعيل يعلق على ما أثاره عبد المتجلى وأهل القرية من آراء فيقول :

" أصبح الكلام فى بعض الأمور – أشد خطراً من المخدرات .. أنا شخصياً إذا خيرت بين قضية سياسية وقضية مخدرات لاخترت الأخيرة " لماذا؟ لأن قضايا المخدرات يستطيع المحامى فيها أن يصول ويجول ، فيجد الثغرات ، ويبطل الأدلة ، ويربك الشهود ،وكثيراً ما يحصل على البراءة ..أما فى قضايا السياسة فالمتهم مجرم ، وإن ثبتت براءته ..هل سمعتم عن القوائم السوداء ..إنها شىء آخر غير السوق السوداء ..إذا لم يكفّ أهل قريتنا عن الاتجار فى الكلام فسوف تسحقهم الدبابات ، وتدكهم الطائرات وسيصيبهم ما أصاب أهل كرداسة فى عام ١٩٦٥م ، أى قبل النكسة بعامين ..." (١) .

١ - اعترافات عبد المتجلى ، ٢٥، ٢٦.

إن الفكر أو الكلام أو حرية الرأى ، صارت مرادفاً للعناء ، وعدم المنفعة ، ليس بالنسبة للقوى القمعية وحدها ،ولكن لقطاعات عريضة فى المجتمع ، إذ نرى أن الفكر لا جدوى له بل هو سبب كثير من البلاء ، وقرين للأحزان والأشجان ، إن الواقع المادى الصرف يلفظ الفكر وأهله ويحاصرهم ويبحث عن مصلحته المادية فحسب .

تقول أم صابرين ، وهى تمثل منهج المنفعة ، فى حوارها مع زوجها عبد المتجلى: "الفكر عندك يعنى الهموم والأحزان " (١).

ويفسر عبد المتجلى ، ما يعنيه الفكر من وجهة نظره ، وهى وجهة نظر الكاتب فيما يبدو :

" الفكر فلسفات ومشاكل ..وبحث عن حلول لقضايا الفرد والمجتمع . كيف تتغلب على قوى البطش والطغيان ؟ كيف نحرر المظلومين ، ونحقق العدل بين الرعية ؟ ولماذا لم نتقدم صناعياً وحضارياً ؟ ولماذا تفيض أنهار الصحف ، وأحاديث الكبار بالخداع والكذب ؟ هذا بعض ما يعنيه الفكر... (٢).

القضية إذاً تعنى الحرية بمفهومها الشامل ، ومواجهة قوى القهر وإقامة العدل والتقدم الحضارى ، وهذه أمور لا تعنى بالضرورة من يفكرون تفكيراً براجماتياً أو نفعياً مثل امرأة عبد المتجلى (أم صابرين) .. ولكن عبد المتجلى الذى يمثل جيلاً يتشوق إلى الحرية والعدل والحضارة ، لا يقبل بالمنهج النفعى أو التفكير البراجماتى ،إنه يتطلع إلى عالم أكثر رحابة واتساعاً وإنصافاً ولذا قادته قدماه إلى عالم الظلم والظلام لاستكشاف جوانبه والاصطلاء بناره ، والوقوع تحت وطأة التعذيب الذى لا يرحم ، والمعذبين الذين قُدَّت قلوبهم من صخر.

---

١ - امرأة عبد المتجلى ،١٨.
٢ - السابق ١٩.

لذا تحفل الروايات بالحديث عن التعذيب والمعذبين والقمع والجلادين ، وآثار ذلك على المجتمع ، وبخاصة الشباب ..

لقد تعرض عبد المتجلى للتعذيب ، وتعرض أبو الفتوح الشرقاوى للتعذيب وتعرض محمد حسب الله وأبو المجد شاهين وأهالى قرية الربايعة للتعذيب ، وأفاضت الروايات فى تصوير بشاعة التعذيب ، ووحشية المعذبين ، والتُّهم الملفقة التى أُجبِر الضحايا على الاعتراف بها ، ويكفينا هنا أن نقرأ ما ذكره الراوى عن تعذيب " الرجل الصالح "- أبو المجد شاهين – ذلك الفلاح الطيب الذى لا دخل له بالسياسة ولا الأحزاب ، وأُخذ من الدار إلى النار كما يقال .

"كان أبو المجد متألماً لما يجرى ،لم يخطر على باله شىء من هذا قط قبل ذلك ، ولم يتصور أن وراء الأسوار وحوشاً بشرية تتصف بهذا القدر من القسوة والحيوانية والمعصية لله . كان يسمع أطرافاً من أحاديث حول معاملة السجناء والمعتقلين والسياسيين لكنه كان يعتبر ذلك أموراً كالتى تحدث فى دوار العمدة ، أو نقطة الشرطة ، وما طاف بخياله قط أن يكون للقمع زبانية مجردون من الضمير والدين ، وأنهم تمرسوا على مثل هذه الوحشية "(١) .

ولأن التعذيب فاق كل تصور ، فإن نتائجه أشرت التطرف وأورثت الضغائن وشجعت الثارات التى قد يذهب ضحيتها أبرياء ، وها هو عبد المتجلى يتحدث عن التعذيب والسجن فيقول :" هنا المدرسة التى يمكن أن يتعلم فيها الإنسان التطرف على أصوله إذا كان للتطرف أصول ..أتمنى لو أن معى مثقاباً كهربائياً (شنيور) لأغرزه فى

١ - ملكة العنب .٦٧.

عيونهم وآذانهم وأمخاخهم ، ثم أجلس لأراهم يتعذبون .." ، ويعلل ذلك بما صنعوه معه " لقد وضعوا عصاة فى دبرى "! (١).

وإذا كان التعذيب هو مصنع التطرف الأصلى ، فإن الروايات تحمل تفسيرات أخرى للتطرف ،منها ذلك الانقلاب الاجتماعى الذى جرى للقرية المصرية شكلاً ومضموناً ومنها انتشار التطرف الانحلالى وترك الحكومة له الحبل على الغارب باسم الحرية الشخصية فى الوقت الذى تضيق فيه الخناق على دعاة الإسلام ، وإقدامها على تزييف الانتخابات بصورة وقحة علنية ، وهيمنة الرشوة والوساطات فى قضاء الحاجات مما ينذر بكوارث اجتماعية وسياسية لا يعلم مداها إلا الله ، لهذا تضاعفت أعداد الشباب المنضمين إلى التنظيمات الإسلامية حيث عدوا أنفسهم حُراساً للقيم والمبادىء الدينية ... (٢).

وإذا كان القمع الذى يُمارس ضد الأفراد ، ويصل بهم إلى التعذيب داخل السجون ،يؤدى إلى التطرف والعنف ، فإن القمع ضد المجتمع كله ينذر بخطر الكوارث التى تهدد بانهياره فضلاً عن تخلفه ، ويجد القارىء فى رواية " ملكة العنب " مقارنة بين ا لقمع قديماً والقمع حديثاً فالناس قبل خمسة وأربعين عاماً ، يذكرون " الهجانة " الذين جاءوا على إبلهم ومنعوا الناس من التجول ،وكانوا يضربون المخالفين بالسياط ..حدث ذلك عندما ثار الناس على طغيان ملاك الأراضى ، أما الآن فإن القمع أصبح فناً له لأصول وضوابطه ويعتمد على القنابل الدخانية ، والعصى الكهربائية ، والمسجلات التى يمسكها العسكر ويتحدثون فيها والتليفزيون الذى يقوم بالتصوير! (٣).

---

١ - اعترافات عبد المتجلى ، ١٢٧.
٢ - امرأة عبد المتجلى ، ١٢٤.
٣ - ملكة العنب ، ٤٤/٤٣.

تبقى قضية الحرية بإيقاعاتها المختلفة ، على مستوى الأفراد ومستوى المجتمع ، القضية الأولى التى تشغل روايات نجيب الكيلانى ، حيث تصبح التفاصيل التى يحشدها نفحات متسقة ، فى إطار نشيد عام ، هو نشيد الحرية ، ويصبح الموضوع الرئائى الأساس هو " جمرة الحرية " بلظاها وضوئها . ولهيبها ونورها ورمادها ومصيرها .

وإذا كانت الحرية أو جمرتها هى الموضوع الرئائى الأساس ، فإنه يمكن القول إن الفساد – بمعناه الشامل – هو الموضوع الرئائى الفرع ، وإن بدا فى كثير من الأحيان أنه المهيمن على سطور الروايات ، ولكنه فى حقيقة الأمر يُعدّ الوجه الأخر لقضية الحرية ، فانتقاء الحرية يعنى المزيد من الخلل والأخطاء والعفن ، وهو ما يُطلق عليه الفساد الشامل .

إن الفساد لا ينمو ولا يترعرع إلا فى بيئة فقدت الروح ، وأخلدت إلى الأرض – المادة وصار المال فيها هو المقياس أو المعيار اجتماعياً وسياسياً :

" قالت أم صابرين بعد تناول العشاء :

- أتعلم ما هى مشكلتك ؟
- بالتأكيد ... إن القضية هى أننى لا أستطيع التأقلم مع هذا العالم الفاسد ..ولا ..
- قاطعته ،وإشراقة حبّ متألقة تصبغ وجنتيها الشهيتين :
- مشكلتك المال.
- هذه فلسفة السقوط .
- تمتمت دون أن تفهم معنى بعض كلماته :
- بل النجاح ..

وبعد تحليل لمعنى النجاح والسقوط فى مفهوم أم صابرين – زوج عبد المتجلى – تخاطبه :

- أقول بصراحة : المال هو القوة .. لوكنت غنياً يا عبد المتجلى لدانت لك الرقاب ولانحنى لك العمدة نفسه احترامـاً وإكباراً ..وشيخ الجامع يا عبد المتجلى يروى عن الرسول أن تسعة أعشار الربح فى التجارة ..
- هزّ عبد المتجلى رأسه مفكراً وقال :
- أنت مثل عامة الناس فى هذا الزمان "(١).

"عامة الناس" إذاً محور المعاناة عند عبد المتجلى . لقد أخلدوا إلى الأرض ومنهم زوجته التى ترى أن المال هو القوة ..الذى يجعل الرقاب تنحنى وتخضع ولو كانت رقبة أكبر رأس وهو العمدة ! وفى سبيل المال انتشر الفساد وعمّ وأخذ صوراً متعددة ، منها ما هو معتاد مألوف ، ومنها ما هو طارىء غريب .

من حوار بين عمدة الرباعية والشيخ محمد حسب الله إمام المسجد نقرأ عن المال والفساد .. لكن الناس فى هذا الزمان قد جُنوُّا بحب المال ، وهم على استعداد لأن يلوثوا الشرفاء ، ويسفكوا الدماء للحفاظ على مكتسباتهم ... العالم كله هكذا ..لعنة الله على الرباعية وأهل الربايعة .. أتدرى يا بنى ما الذى أفسد هذه القرية التى كانت آمنة ؟.

- ماذا؟.
- عد على أصابعك :

التليفزيون .. السفر للعمل بالخارج .. وفساد الإدارة ..والبضائع المستوردة ، وانهيار التعليم .. والبعد عن شرع الله ... والرشوة .. تلك هى الأوبئة السبعة "(٢).

---

١ - امرأة عبد المتجلى ، ٢٧/٢٦.
٢ - ملكة العنب ، ١٦.

الأوبئة السبعة منها ماهو معتاد ومنها ماهو طارىء ، وكلها كما عدّها عمدة الربايعة والشيخ محمد ، سبب المأساة التى يعيشها الناس ، وإن بدا بعضها مصدر نفع وفائدة مثل التليفزيون يمكن أن يتحول إلى أداة تثقيف وتوعية ومعرفة ، والسفر للعمل بالخارج يبدو لأول وهلة مصدراً للثراء وتوفير الحاجات التى تحقق الاكتفاء وتمنع من الاحتياج ، ولكن التليفزيون تحول إلى أداة دعاية للكذب ودعوات الباطل وغسيل المخ والقيم المادية الرخيصة ، أما السفر للعمل بالخارج ، فقد مزّق الأسر وأفسد العلاقات الاجتماعية وترك الأبناء والزوجات بلا تربية ولا رعاية . وكان الحصاد فى كل الأحوال قبض الريح . إن الأوبئة السبعة قد حولت الناس إلى عبيد للمال وحده ، يملئون به البطون ويشبعون الرغبات الحسية ،ولم يعد هنالك مجال للقيم الروحية السامية وفى مقدمتها "الحرية " بمعناها الرحيب وهو ما أتاح للفاسدين والمفسدين أن يزدادوا فى الأرض فساداً وغواية وضلالة ..بحيث صارت الأوبئة السبعة أمراً اعتيادياً ، فالرشوة مثلاً صارت مألوفة ويمارسها الكبار والصغار ، وقضاء المصالح اليومية وغيرها لا يتم إلا بالدفع .

" فى الرخصة تدفع .. وفى إدخال الماء تدفع .. وعند مدّ أسلاك الكهرباء تدفع .. وكل جزْ رعلى شاطىء الترعة يقدم له (أى لرئيس المجلس القروى)كيلو لحم أسبوعياً.."... بل إن رئيس مجلس القرية يقول تعليقاً على رفض " أبو المجد شاهين " دفع الرشوة كى يصل تيار الكهرباء وماسورة المياه إلى بيته :" لن يدخل النور بيت أبو المجد " لأن الأحمال الكهربائية لا تكفى ، ولن يشرب قطرة ماء من شبكة مياه الحكومة .. إلا إذا دفع .. ليس عندى فرق بين صالح وطالح "(١).

١ - السابق ، ٦٩.

إن القضية بالنسبة لرئيس مجلس القرية تعدّ بسيطة ومحدودة ولكن هناك كباراً يحصلون على الملايين دون أن يتدربوا فى مدارس النشل ، لديهم مؤهلات ، كدكتوراه وماجستير ودبلومات علياً فى مختلف الفنون والعلوم ، وهم يستخدمون هذا العلم الحديث فى الاستثمار الحرام ، وامتصاص الدماء ، واستنزاف التائهين والمقهورين والجهلاء (١).

إن الرشوة وبقية مظاهر الفساد صار لها مسميات جديدة ، أطلقها المفسدون بقصد التخفيف من دلالة الأسماء الأصلية ، وخداع البسطاء والسذج ، إن تسمية الرذائل بمسميات جديدة محاولة للقفز على مواصفات المجتمع وأخلاقه فضلاً عن دينه .. إن الرشوة صار اسمها عمولة أو مصاريف إدارية مقابل التسهيلات التى يحظى بها المستفيد . ولم يكن لدى الإدارة والعمدة مثلاً مانع من تقبل هذه العمولة وخاصة أن أم صابرين – إمرأة عبد المتجلى – سخية اليد ، وإذا أعطت لخفير أو كبير أو مدير بيمناها ، لم تعرف يسراها عن ذلك شيئاً ، وهذا ما جعل عبد المتجلى يصاب بالذهول عندما عرف أن الكذب له ألف اسم واسم ، والرشوة تتزين بأردية شتى مختلفة الألوان ، والظلم اسمه الضبط والربط والأمن الاجتماعى ، ومجالس الاستغلال والنصب يطلقون عليها مجالس القرى ، ٠والإفساد الزراعى يدعى بالإصلاح الزراعى ...

"صرخ عبد المتجلى بأعلى صوته ذات ليلة ، وقال :

- ام صابرين ..أيتها الملعونة ..

أقبلت مسرعة تلهث ، يتقدمها بطنها المتضخم ، فقد أصبحت حاملاً فى شهرها السادس وقالت :

---

١ - امرأة عبد المتجلى ، ٤٦.

- هل صحيح ما سمعت ؟ .
- كيف لا تكونين ملعونة ..وأنت تحلين ما حرم الله .. الراشى والمرتشى فى النار ..والمحتكرين والمحتكرات فى النار ..
- قالت بحزم ..
- كفى ..وكن عادلاً.. (١) .

والفساد فى روايات نجيب الكيلانى متجذر يمتدُّ إلى أعماق الماضى ، وتجذره – فيما يبدو- هو سرّ قوته فى مواجهة دعوات الإصلاح وقهرها والتشهير بها ، وتحويل الدعاة إلى متهمين دائماً .. ففى رواية " قضية أبو الفتوح الشرقاوى " التى تدور فى زمن الحرب العالمية الثانية ، تجسيد حىّ للفساد المتوحش الذى صنعته أطراف عديدة ، فقد كان هناك تهريب للسلاح من المعسكرات البريطانية يقوم به بعض الرسميين ، والسوق السوداء تخضع لسيطرتهم ، الحشيش مثلما يقال ،" على قفا من يشيل " ، بل ظهرت مخدرات ومنشطات جديدة أشهرها " البانجو " والقطعة منه تباع بقرشين ، والناس كانوا يبيعونه فى الشوارع والحارات دون حرج – والانجليز هم الذين أتوا به ، والسوق السوداء ضرورة معيشية لأن التموين الرسمى لا يكفى ، ولابد أن يبحث الناس عن احتياجاتهم بأى ثمن .. حتى قال الحاج يونس عبده :

" قريتنا هى القرية الظالم أهلها .. وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " (٢) .

إن صورة البلاد فى تلك الفترة هى صورة موازية للأوضاع فى زماننا مع اختلاف الشخصيات والأبطال ، فهناك أمور كثيرة تجرى فى الخفاء ، القضايا المهمة تتوارى

---

١ - امرأة عبد المتجلى ،١٣/١٢.
٢ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ، ٦٨.

وتطفو على السطح أحداث ثانوية أو فرعية لا قيمة لها ، وينشغل الناس بأمور تافهة ويبقى الحال على ماهو عليه .. والمستقبل غامض لا يعرف أحد ماذا سيحدث غداً ، والغلاء كغول ينشب أظفاره ، وتجار السوق السوداء تنتفخ كروشهم وجيوبهم ، والفلاحون " أرهقهم الريجيم " الإجبارى ولهذا فهم لا يشكون من ارتفاع الكوليسترول فى الدم ولا الضغط ولا الذبحة ، فقط الأنيميا ..فقر الدم البلهارسيا ..... (١)

إن الكاتب – فى رأيى – قد لجأ إلى فترة الحرب العالمية الثانية ، ليجد فرصة أرحب فى رسم الصورة الموازية التى يشتعرها القارىء دون كثير عناء ، حين يقارن الوضع آنئذ والوضع الراهن ،إنها على كل حال ، صورة تعسة للوضع الفاسد الردى الذى آلت إليه مصر فى هذه الحقبة التاريخية السوداء ،وأنها تجسيد لضياع هيبة القانون والحريات العامة ، كما أنها كشفت المستور عن الأوضاع المترئة للطبقات التى تزعم أنها راقية ومتحضرة وشريفة ، كما كتب أحد الكتاب الحزبيين من منظور عام (٢).

ومهما يكن من أمر ، فإن الفساد العام فى القديم والحديث له صلة حميمة وعلاقة وثيقة بمواجهة دعوات الإصلاح وقهر الدعاة المصلحين ، فعندما ذهب عبد المتجلى القصاص ،ليبحث عن الونش المسروق ، وقع فى قبضة جهات الأمن التى أصلته نار التعذيب الوحشى ، وقد أراد أهل القرية الاجتماع على ما جرى لابنهم ، فواجههم العمدة الفاسد ورجاله ، وأصدر إليهم أمراً بالعودة إلى بيوتهم لأن التجمعات والتظاهرات ممنوعةطبقاً لقانون الطوارىء .. والمخالف مصيره الاعتقال ، ومن حق وزير الداخلية رفض الإفراج عن المعتقلين ..وقد قام رجال العمدة (الخفراء وشيخهم) بضرب الأهالى عدا الإمام والشيخ إسماعيل ..

---

١ - السابق ٩٣..
٢ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ، ٨٤.

ولكن وفداً من الأهالى يذهب فيما بعد إلى عاصمة المحافظة ويقابل المحافظ ، ويذهلون عندمايخبرهم أنه لا يعرف شيئاً عن المدعو " عبد المتجلى القصاص " ولا يهمه أن يعرف ! (١)

وإذا كان المحافظ بوصفه مسئولاً رسمياً أعلى ، يبدو سابياً وغير معنى بقضية خطيرة ، مثل قضية عبد المتجلى ، فإن المسئول الرسمى المباشر ، يأخذموقفاً إيجابياً لصالح السلطة ، وأكثر سلبية تجاه الناس ، فقد اجتمع رئيس مجلس القرية مع المجلس وقرر إرسال برقيات استنكار وشجب ، وبراءة من عبد المتجلى ، إلى المسئولين ونشر تأييد من المجلس للحكومة ورجال الأمن فى الصحف ، وعندما اقترح عضو فى المجلس توفير ثمن البرقيات والتأييد لإصلاح ماسورة المياه المكسورة فى القرية ، رد رئيس المجلس :

-أنا مصرّ ، بل وأعتبره واجباً وطنياً مقدساً .

ثم يشعل سيجاراً ويقول :

" وعليكم أن تشجعوا أهل القرية خاصة النظار والمدرسين وذوى الحيثية على إرسال برقيات مماثلة حتى نزيل ما علق باسم قريتنا من أوساخ .... (٢)

والمفارقة هنا لا تحتاج إلى بيان ، فداعية الإصلاح " عبد المتجلى " ، ومؤيدوه من أهل القرية ، صاروا " أوساخاً "..... أما العمدة ورجاله ، ورئيس المجلس وأعضاؤه ، فهم ممثلو الطهارة والنقاء مع ما يمارسونه من كذب وتزييف ونفاق وإفساد وانحلال وقبول للرشوة ....إلخ

إن تجذر الفساد وفقدان الحرية . واختلال المجتمع يهيء لحالة من الإحباط والسلبية التى تعم جموع الناس ، وتدفع الكثيرين دفعاً إلى اعتزال المجتمع مخافة

---

١ - اعترافات عبد المتجلى ١٠٨/ ١٠٩.
٢ - السابق ١٠٦.

الاحتكاك بالفاسدين أو الظالمين ...أو مجاراة الأوضاع الفاسدة والتلظى بنيرانها فى النهاية . وغالباً ما يجنح إلى الاعتزال والسلبية أولئك الذين يتوقون إلى إشاعة الخير والفضيلة والمودة بين أفراد المجتمع ، ولكنهم لا يستطيعون بإمكاناتهم الروحية والنفسية أن يخوضوا عباب الصراع لذا يؤثرون الانزواء والعزلة :

" عندما تغيب شمس العدالة ، يتفشى الحقد ، وتنمو الأكاذيب ، ويسبح الناس فى بحر الظلمات ..ومن يفقد الأمن يعش فى الجحيم ألا وإن الإيمان هو جنة الله على الأرض... وإذا شاعت الفتنة فالزم بيتك يا مؤمن .. ولتبك على خطيئتك .. وإذا لم تبكوا فتباكوا ..." (١).

وقد يتجاوز الأمر العزلة أو الانزواء إلى الهجرة ، فقد فكر عبد المتجلى جدياً فى السفر إلى الخارج هرباً من الواقع القاسى ، وهى ظاهرة لم تكن مألوفة فى المجتمع ولكن الناس اضطروا إليها اضطراراً بسبب الاختلال السائد والفساد المتفشى والقهر الظلم ..بيد أن المؤلف لم يعالج هذه الظاهرة باستفاضة وإن كان قد أشار إلى مكاتب العمالة والنصابين والكذابين وانعدام الثقة الذى يملأ أجواء المدينة ،نتيجة استغلال الرغبة لدى الكثير فى الهجرة والعمل بالخارج (٢).

وإذا كان الانزواء والعزلة والهجرة حلولاً سلبية يلجأ إليها الناس عندما تضيق بهم السبل للعيش بطريقة كريمة دون أن يفقدوا حريتهم أو يصيبهم رذاذ الفساد فإن نجيب الكيلانى حريص على أن يحقق نوعاً من التوازن فى مواجهة الإحباط والسلبية ، وذلك بأن

---

١ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ، ٦٦.

٢ - حدثنى الكاتب أنه بصدد جزء ثالث لروايته (اعترافات عبد المتجلى) و(امرأة عبد المتجلى) بعنوان (هجرة عبد المتجلى ،وعلمت أنه سيجعل هجرته إلى الداخل ناحية الجنوب ، وليس إلى البلاد العربية والأجنبية وفهذه الهجرة تظهر قضايا وموضوعات روائية أخرى تخص المكان وما يتعلق به وللأسف رحل الكاتب قبل أن ينجز وعده بكتابة (هجرة عبد المتجلى) .وعلمت أن هناك بعض الصفحات التى كتبها لدى أسرته .

يجعل أبطاله يقاومون الفساد والقهر ويستمرون فى المقاومة ، مع ما يبدو أحياناً من انهزامهم أو دفعهم ثمناً باهظاً لمواقفهم ، فبعدما جرى لعبد المتجلى من محنة على يد أجهزة الأمن ، يعود إلى وظيفته بمجلس القرية ، ويبدأ فترة من الكمون والاسترخاء ، يستعيد فيها أمنه واستقراره ..وإذا كان السؤال المطروح هو : هل انهزم عبد المتجلى فعلاً ؟فإن القضية تحتاج إلى دراسة وتمحيص . فهو يعتقد أن الواجب لابد أن يقوم به سواء تحقق النجاح أو حَلّ الفشل .هذا الالتزام فى حدذاته انتصار على الضعف (١).

ثمة قضايا أخرى طرأت على المجتمع ولكنها ترتبط بصورة وأخرى بمسألة الحرية أو قضية الفساد ، وقد عالجها المؤلف فى مواضع مختلفة ..وقد أشرنا إلى بعضها من قبل فهناك مثلاً قضية تجريف الأرض الزراعية ، وبيع ترابها بثمن غال ليصنع منه الطوب الأحمر الذى يستخدم فى البناء ، ويترتب عليه عدم صلاحية الأرض للزراعة ... وقد نجح بطله " عبد المتجلى " فى مواجهتها ، مع ما لاقاه من عناء وصل إلى حدّ ضربه " بالفلقة "على رجليه فى قسم الشرطة . وهناك قضية زراعة العنب بدلاً من المحاصيل الزراعية ، وقد عرضها المؤلف باستفاضة ، ولم يقدم لها حلاً واضحاً ، ولعله وجد فى مجرد العرض تنبيهاً إلى خطورتها كى يتلافاها الناس فيما بعد ، وإن توقف عند مسألة إخراج زكاة العنب حقاًمشروعاً للفقراء .. ويمكن عدّ هاتين القضيتين من نتائج الفساد المستشرى الذى غيرّ النفوس والقيم ، فدفع البعض إلى البحث عن الكسب السريع على حساب المصلحة العامة أو ما يسمى المصالح الاستراتيجية للأمة ، فتبوير الأرض الزراعية فى الوقت الذى يدعو فيه أهل الاقتصاد وغيرهم إلىالتوسع فى استصلاح الصحراء وإعدادها للزراعة لتستوعب

١ - امرأة عبد المتجلى ، ٥.

الزيادة السكانية ، وتفتح مجالات جديدة للرزق ، عملٌ ضد الدين والأخلاق والقانون والوطن جميعاً . أما زراعة العنب والفواكه السريعة العائد على حساب المحاصيل الزراعية التى تكون الغذاء اليومى الرئيسى للناس ، فهو دعوة إلى استمرار استيراد القمح والذرة وغيرها من الدول الكبرى ، مما يترتب عليه التبعية لهذه الدول وإعطائها الفرصة للتحكم المستمر فى مصيرنا وحركتنا واستقلالنا .

بيد أن الكاتب عالج ظاهرة مهمة من ظواهر الهجرة إلى الدول العربية ، وهى قتل المصريين فى الخارج وإعادتهم إلى البلاد جثثاً هامدة مشوهة ، ووقوف السلطة من هذه الظاهرة موقفا سلبيا غريباً لا يتفق مع واجبها فى الحرص على كرامة مواطنيها وأبنائها كما تفعل دول العالم المختلفة لرعاية مواطنيها فى الخارج .. بل إن المفارقة تكمن فى أن السلطة عاقبت الناس فى " الربايعة " عندما أعلنوا سخطهم على النظام العراقى وحاكمه بسبب قتل مواطنيهم ، وقامت باعتقال عدد كبير منهم وعذبتهم فى مبنى جهاز الأمن ، لفقت لهم تهمة تكوين تنظيم دينى متطرف يسعى لقلب الحكم (!)، ولم تطلق سراحهم إلا بعد أن قام العراق بغزو الكويت ، وتغيرت طبيعة العلاقات بين السلطة ونظام بغداد ! .

وقد أشار الكاتب إلى عملية الغزو العراقى فى سياق معالجته لمسألة قتل المصريين الذين ذهبوا للبناء والتعمير، والمصانع والمتاجر ينهبها المغول ويدمرونها، وهناك عذارى وأيامى ويتامى يسغثيون ، أليس هذا من علامات الساعة ؟" (١) .

إن الموضوع الرئيسى فى روايات نجيب الكيلانى ، حافل بالوقائع الجزئية والظواهر الجديدة التى طرأت على المجتمع ، لكنه يربطها بمهارة واقتدار بقضيته الأساس

---

١ - ملكة العنب ، ١١٠وما بعدها .

وهى الحرية المفقودة ، أو وجهها الآخر وهو الفساد العام ، وكلاهما ، جعل الإنسان / الفرد أو المجتمع / الشعب .كياناً هزيلاً لا قيمة له ، ولا كرامة ، سواء فى داخل البلاد أو خارجها وهو ما حوّله إلى " عَبدٍ" للمادة (المال / المتعة) تحكمه أو تستعبده فضاعت القيم ، وعمّ الفساد ، وهذا هو سرّ التخلف الشنيع الذى تعانيه الأمة فى كافة المجالات ، فالعبيد لا يستطيعون بناء الأوطان ، ولا يقدرون على منافسة الشعوب الحرة ...

ويلاحظ أن الموضوع الرئائى لدى نجيب الكيلانى أخذ مساراً واضحاً ومحدداً بصفة عامة ، دون أن يحدث له التواء أو غموض أو قصور ، لأن الرؤية كانت واضحة ومحددة ، وهى الرؤية الإسلامية فى بساطتها وعفويتها ، ودقتها أيضاً .. فقد كان يرصد الظاهرة ، ثم يتعمق أسبابها الحقيقة فى صدق موضوعى وفنى ، يدخله فى دائرة المبادرة الشجاعة ، التى يفتقدها الكثيرون ممن يلجأون إلى اللف والدوران والغمغمة دون أن يبين قصدهم أو تتضح غايتهم أو يظهر هدفهم .

إنه يواجه بالفن – فى كل الأحوال – قضايا مجتمعه ، مواجهه صريحة ، قد لا يستريح إليها البعض ، ولكنها تُشرِّح هذه القضايا ، مهما كانت عملية التشريح قاسية ، لنأخذ منها دليلاً يقودنا إلى عملية الإصلاح والبناء ، وفى ذاته يمتعنا بشخصيات حيّة وأحداث متميزة تظل فى ذاكرتنا إلى أمد بعيد .